الفصل الأول

معنى الإخلاص وضرورته للسالكين إلى الله

الإخلاص : عمل من أعمال القلوب ، بل هو فى مقدمة الأعمال القلبية ، لأن قبول الأعمال لا يتم إلا به .

والمقصود بالإخلاص : إرادة وجه الله تعالى بالعمل ، وتصفيته من كل شوب ذاتى أو دنيوى ، فلا ينبعث للعمل إلا لله تعالى والدار الآخرة ، ولا يمازج عمله ما يشوبه من الرغبات العاجلة للنفس ، الظاهرة أو الخفية ، من إرادة مغنم ، أو شهوة ، أو منصب ، أو مال ، أو شهرة ، أو منزلة فى قلوب الخلق ، أو طلب مدحهم ، أو الهرب من ذمهم ، أو إرضاء لعامة ، أو مجاملة لخاصة ، أو شفاء لحقد كامن ، أو استجابة لحسد خفى ، أو لكبر مستكن ، أو لغير ذلك من العلل والأهواء والشوائب ، التى عقْدُ متفرقاتها هو : إرادة ما سوى الله تعالى بالعمل ، كائناً مَن كان ، وكائناً ما كان .

وأساس إخلاص العمل : تجريد « النية » فيه لله تعالى .

والمراد بالنية : انبعاث إرادة الإنسان لتحقيق غرض مطلوب له .

فالغرض الباعث هو : المحرِّك للإرادة الإنسانية لتندفع للعمل ، والأغراض الباعثة كثيرة ومتنوعة ، منها ، المادى والمعنوى ، ومنها : الفردى والاجتماعى ، ومنها : الدنيوى والأخروى ، ومنها التافه الحقير ، والعظيم الخطير ، منها ما يتعلق بشهوة البطن والجنس ، ومنها ما يتصل بلذَّة العقل والروح ،

منها ما هو محظور ، ومنها ما هو مباح ، ومنها ما هو مُستحَب ، ومنها ما هو واجب .

وإنما يحدد هذه البواعث : عقائد الإنسان وقيمه التى يؤمن بها ، ومعارفه وأفكاره ومفاهيمه التى كوّنها بالدراسة أو بالتجربة ، أو بتأثير البيئة ، وبالتقليد للآخرين .

والمؤمن الحق هو الذى غلب باعث الدين فى قلبه باعثَ الهوى ، وانتصرت حوافز الآخرة على حوافز الدنيا ، وآثر ما عند الله تعالى على ما عند الناس ، فجعل نيته وقوله وعمله لله ، وجعل صلاته ونُسُكه ومحياه ومماته لله رب العالَمين ، وهذا هو الإخلاص .

* *

● الإخلاص من ثمرات التوحيد الخالص :

والإخلاص بهذا المعنى : ثمرة من ثمرات « التوحيد » الكامل لله تبارك وتعالى ، الذى هو إفراد الله عَزَّ وجَلَّ بالعبادة والاستعانة ، والذى يعبر عنه قوله سبحانه فى فاتحة الكتاب وأم القرآن : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ، والذى يناجى به المسلم ربه فى صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة .

وبهذا الإخلاص : يكون الإنسان المؤمن عبد الله حقاً ، لا عبد هواه ، ولا أهواء غيره ، لا عبد دنياه ولا دنيا سواه .

بهذا الإخلاص المتجرد : يتخلص من كل رق ، ويتحرر من كل عبودية لغير الله : عبودية الدينار ، والدرهم ، والمرأة والكأس ، والزينة والمظهر ، والجاه والمنصب ، وسلطان الغريزة والعادة ، وكل ألوان العبودية للدنيا التى استسلم لها الناس ، ويكون كما أمر اللهُ رسولَه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) الفاتحة : ٥ (٢) الأنعام : ١٦١ ، ١٦٢

● ضرورة الإخلاص للسالكين :

وقد أجمع الربَّانيون - من رجال التربية الروحية ، وأهل الطريق إلى الله - على أهمية الإخلاص وضرورته لكل عمل من أعمال الآخرة ، وكل سالك للطريق .

يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى مقدمة كتاب « النية والإخلاص والصدق » من ربع المنجيات من « الإحياء » :

« قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان ، وأنوار القرآن : أن لا وصول إلى السعادة ، إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون [1] ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ » [2] .

وما قاله الغزالى سبق بنحوه العارف الربَّانى سهل بن عبد الله التُسْتَرى ، حيث قال : الناس كلهم سكارى إلا العلماء ، والعلماء كلهم حيارى ، إلا مَن عمل بعلمه .

وفى لفظ آخر قال : الدنيا جهل وموت ، إلا العلم ، والعلم كله حجة (أى على صاحبه) ، إلا العمل به ، والعمل كله هباء ، إلا الإخلاص ، والإخلاص على خطرعظيم حتى يختم به .

---

(١) هكذا ذكرها الغزالى بالرفع ، مع أن القاعدة أن تكون منصوبة ، لأن المستثنى منه تام موجب ، وذكرها بعضهم على أنها حديث مرفوع ، وقال الصغانى : حديث مفترى ملحون ، ونقل السيوطى فى النكت عن أبى حيان : أن الإبدال فى الاستثناء الموجب لغة لبعض العرب ، وخرَّج عليها قوله تعالى فى إحدى القراءات : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إلا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) وعليه فـ « العالمون » وما بعده بدل مما قبله ، انظر : كشف الخفاء : للعجلونى : ٢/٣١٢

(٢) الفرقان : ٢٣

وقال بعضهم : العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص .

وقال ابن عطاء الله فى « حكمه » :

إن الله لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك ، فالعمل المشترك هو لا يقبله ، والقلب المشترك هو لا يقبل عليه .

إن العمل الذى لا يصحبه الإخلاص صورة بلا حياة ، وجثة بلا روح ، والله تعالى إنما يريد من الأعمال حقائقها لا رسومها وصورها ، ولهذا يرد كل عمل مغشوش على صاحبه ، كما يرد الصيرفىّ الناقد العملة الزائفة .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم وصوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وأشار بأصابعه إلى قلبه . وقال : « التقوى ههنا » وأشار إلى صدره ثلاث مرات [1] .

وقال الله تعالى فى شأن قرابين الهدى والأضاحى التى يقدمها الحجاج والمعتمرون : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [2] .

* *

● الإخلاص مطلوب لصلاح الحياة :

وليس تشديد الإسلام فى طلب الإخلاص ، وتأكيده على تجريد النية لله ، وتصحيح الاتجاه إليه وحده : ضرباً من التزمت أو العبث ، فإن الحياة نفسها لا تستقيم ولا ترتقى إلا بالمخلصين ، وأكثر ما يصيب الأمم والجماعات من النكبات والكوارث القاصمة إنما يجره عليها أناس لا يرجون الله والدار الآخرة .. أناس من عبيد الدنيا ، وعشاق الثروة ، الذين لا يبالون - فى سبيل دنياهم وشهوات أنفسهم - أن يدمروا دنيا الآخرين ودينهم معاً ، وأن يحولوا الأبنية إلى خرائب ، والمنازل إلى مقابر ، والحياة إلى موات .

---

(١) هذا الحديث والذى قبله رواه مسلم فى البر والصلة برقم (٢٥٦٤) .

(٢) الحج : ٣٧

أو أناس من طُلَّاب الزعامة والسُلْطة ، وعبيد الشهرة والجاه ، وعُشَّاق المجد الشخصى ، والبطولة بغير الحق ، إنهم فى سبيل الحصول على المجد والسلطان ، أو فى سبيل الحفاظ على ما أدركوا منه ، لا يبالون أن يخربوا ديارا ، ويدمروا أُمة بل أُمماً بأسرها ، لا لشىء إلا لتصفق لهم الأيدى ، وتهتف لهم الحناجر ، وتنطلق بإطرائهم الأقلام ، وتُسبِّح بحمدهم الجماهير المسكينة المخدوعة ، ويدوم لهم الاستمتاع بكراسىّ الحكم الوثيرة ! وشعار كل منهم : أنا أو يخرب العالَم من بعدى !!

إن الإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش بوجهين : وجه لله ، ووجه لشركائه . ولا أن تنقسم حياته إلى شطرين : شطر لله وشطر للطاغوت . الإسلام يرفض الثنائية المقيتة ، والازدواجية البغيضة ، التى نشهدها فى حياة المسلمين اليوم ، فنجد الرجل مسلماً فى المسجد أو فى شهر رمضان ، ثم هو فى حياته ، أو فى معاملاته ، أو فى مواقفه إنسان آخر . إن الإخلاص هو الذى يوحد حياة المسلم ، ويجعلها كلها لله ، كما يجعله كله لله . فصلاته ونُسُكه ومحياه ومماته لله رب العالمين .

* * *